معنى الخُفّ

د. محمد أكرم الندوي

بسم الله الرحمن الرحيم

سؤال

ورد إلي من الأخ العالم الباحث عرفان نصر الفاروقي الندوي استفسار يسألني فيه عن معنى الخف.

الجواب

أبدأ الجواب عنه بالبيان عن معنى الحذاء والجورب، لأن ما يأتي من التفاصيل يعتمد فهمُه استيعابَ دلالتي هاتين الكلمتين.

معنى الحذاء والجورب

فالحذاء ما توقى به الأقدام وقت المشي، وصاحبه محتذٍ، وضده الحافي، وأصله من حذاء الحيوان، قال الجوهري في الصحاح: "الحذاءما وطئ عليه البعير من خفه، والفرس من حافره، وفي الحديث: معها حذاؤها وسقاؤها".

والجورب ما يلبس في القدمين لفافة لها قبل الحذاء إما وقاية لها من البرد أو من خشونة الحذاء، أو وقاية للحذاء من عرق القدمين، قال ابن منظور في لسان العرب: "والجورب لفافة الرجل، معرَّب، وهو بالفارسية كورب؛ والجمع جوارب؛ زادوا الهاء لمكان العجمة"، ويسمى بالأردية "مُوزَه".

الخطأ الشائع

من الشائع في القارة الهندية أن الخف نوع من الجورب، ويترجم إلى الأردية بـ"الجورب الجلدي"، وأنه لا فرق بينهما إلا أن الخف يتخذ من جلود الأنعام، والجورب يصنع من الصوف أو بعض أنواع القماش.

وذلك خطأ جر عامة الطلاب وكثيرا من العلماء إلى الشطط ببعض النصوص عن مواضعها، ومما يغني على الاستغراب أني رأيت الغلط قد سرى إلى إخواننا العرب، وزاد الطين بلة انتشار الجوارب الجلدية في الطبقات المتدينة، وإطلاق كلمة الخفاف (جمع الخف) عليها، ولا حامل لها على ذلك إلا حرصها على التمتع برخصة المسح، إذ استفاض من النبي صلى الله عليه وسلم المسح على الخفين.

الصواب في معنى الخف

والصواب الذي سنحققه في هذا المقال أن الخف ليس من جنس الجورب، ولكنه من جنس الأحذية، والحذاء أنواع، منها نوعان منتشران بين العرب في عهد النبي صلى الله عليه وسلم: النعل والخف، وكلاهما توقى به الأقدام من الأرض، والفرق بينهما أن النعل ما كان أدنى من الكعبين غير محيط بالقدمين، والخف ما كان أعلى من الكعبين وأحاط بالقدمين، وأصل معنى الخف كما جاء في الصحاح للجوهري: "الخف واحد أخفاف البعير، والخف واحد الخفاف التي تلبس، والخف في الأرض أغلظ من النعل". وفي لسان العرب: "خف البعير، وهو مجمع فرسن البعير والناقة، تقول العرب: هذا خف البعير وهذه فرسنه. وفي الحديث: لا سبق إلا في خف أو نصل أو حافر. فالخف الإبل ههنا، والحافر الخيل، والنصل السهم الذي يرمى به، ولا بد من حذف مضاف، أي لا سبق إلا في ذي خف أو ذي حافر أو ذي نصل ... وخف الإنسان ما أصاب الأرض من باطن قدمه، وقيل: لا يكون الخف من الحيوان إلا للبعير والنعامة. وفي حديث المغيرة: غليظة الخف، استعار خف البعير لقدم الإنسان مجازا، والخف في الأرض أغلظ من النعل".

الفرق بين الخف والجورب

فالخف يخالف الجورب (مهما كان مصنوعا من الجلد أو القماش) في خصلتين أساسيتين:

الأولى أن الجورب لا يطأ الإنسان به الأرض، والخف يمشي فيه على الطرق الوعرة والسهلة والوحلة، أخرج مسلم في صحيحه وأبو داود في سننه وغيرهما عن جابر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أو سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إذا انقطع شسع أحدكم أو من انقطع شسع نعله فلا يمش في نعل واحدة حتى يصلح شسعه، ولا يمش في خف واحد، ولا يأكل بشماله، ولا يحتبي بالثوب الواحد، ولا يلتحف الصماء.

فنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن المشي في خف واحد كما نهى عن المشي في نعل واحدة، والنعل والخف كلاهما يشترك في هذا الوصف، والآثار في المشي على الخفين كثيرة، ففي المصنف لابن أبي شيبة: حدثنا جرير بن عبد الحميد، عن مغيرة، عن حماد، قال: كانوا يشتدون في الروث الرطب إذا كان في الخف. وقال الشافعي في الأم: فإذا كان الخفان من لبود أو ثياب أو طفي فلا يكونان في معنى الخف حتى ينعلا جلدا أو خشبا أو ما يبقى إذا توبع المشي عليه.

والثانية أن الجورب تلبس فوقه النعل أو غيرها من أنواع الأحذية، والخف لا تلبس فوقه النعل أو غيرها من الأحذية، ويزيد ذلك بيانا أحاديث المسح على الخفين، فهي لا تتعرض للمسح على النعلين، بينما ترى أحاديث المسح على الجوربين تجمع بين الجوربين والنعلين في المسح.

ففي سنن الترمذي وغيره عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، قال: توضأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ومسح على الجوربين والنعلين. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وفي المصنف لابن أبي شيبة عن جلاس بن عمرو أن عمر توضأ يوم جمعة، ومسح على جوربيه ونعليه. وعن إبراهيم النخعي قال: الجوربان والنعلان بمنزلة الخفين، وعن جلاس، قال: رأيت عليا بال، ثم مسح على جوربيه ونعليه. وعن كعب بن عبد الله أن عليا بال، ثم توضأ ومسح على الجوربين والنعلين. وعن فرات، قال: رأيت سعيد بن جبير، توضأ ومسح على الجوربين والنعلين.

الفرق بين الخف والنعل

فالخف مع مشاركته النعل في كونهما جميعا من جنس الأحذية، يباينها في معنى:

وهو أن النعل أسفل من الكعبين، والخف يعلو الكعبين محيطا بالقدم، أخرج الشيخان عن عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رجلا قال: يا رسول الله، ما يلبس المحرم من الثياب؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يلبس القمص، ولا العمائم، ولا السراويلات، ولا البرانس، ولا الخفاف، إلا أحد لا يجد نعلين، فليلبس خفين، وليقطعهما أسفل من الكعبين.

فهذا الحديث واضح أن النعل والخف قسيمان، ولو كان الخف نوعا من الجورب لقال: وليخلعهما، ومثله ما أخرجه مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخطب يقول: السراويل لمن لم يجد الإزار، والخفان لمن لم يجد النعلين، يعني المحرم. فجعل السراويل مكان الإزار، لأن السراويل والإزار قسيمان، وجعل الخفين مكان النعلين لأنهما قسيمان.

ولو كان الخف نوعا من الجورب لما حصل المقصود بقطعهما فإن الحذاء يغطيه، والحديث فيمن لا يجد النعلين.

أدلة أخرى على أن الخف من جنس الحذاء

الأول أن أرض العرب العرباء (الحجاز ونجد واليمن وما والاها) حارَّة بصفة عامة، وليس فيها من البرد حتى في أيام الشتاء إلا قليلا جدا، فلا يحتاجون إلى لبس الجوارب حتى المصنوعة من الصوف والقماش، ومن ثم لم تكن في لغتهم كلمة للجورب، فكيف يظن بهم لباس الجوارب الجلدية، وإنما كانوا يلبسون الأحذية للمشي، وكانت النعال عامة أحذيتهم، وكانوا يلبسون الخفاف في السفر وقاية للأقدام من الإصابة في الطرق الوعرة، وقلما كانوا يلبسونها في الحضر، ومن ثم وردت عامة أحاديث المسح على الخفين وآثاره في سياق السفر.

والثاني أنهم إذا أرادوا ذكر كون الرجل حافيا نفوا لبسه الخفين والنعلين، لأنه إما يلبس الخفين أو النعلين، أخرج مسلم عن عبد الله بن عمر، أنه قال: كنا جلوسا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاءه رجل من الأنصار فسلم عليه ثم أدبر الأنصاري، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أخا الأنصار كيف أخي سعد بن عبادة. فقال: صالح. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من يعوده منكم؟ فقام وقمنا معه ونحن بضعة عشر، ما علينا نعال ولا خفاف ولا قلانس ولا قمص، نمشي في تلك السباخ حتى جئناه فاستأخر قومه من حوله حتى دنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الذين معه.

والثالث نصهم على الخفاف مع النعال في موضع ذكر إباحة الصلاة محتذيا، ولو كان الخفان في معنى الجوربين لما كان لذكرهما معنى، أخرج أبو داود والحاكم عن شداد بن أوس قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: خالفوا اليهود فإنهم لا يصلون في نعالهم ولا خفافهم.

والرابع نصهم على المشي في الخفين في الغزوات، بل وفي الحضر حتى إن النجاسات كانت تصيب الخفاف كما تصيب النعال، في المصنف لابن أبي شيبة: قال:: حدثنا جرير، عن ليث، عن زبيد، والأعمش، قالا: كان إبراهيم ينتهي إلى باب المسجد في نعليه أو في خفيه السرقين فيمسحها، ثم يدخل فيصلي، وعن ثابت بن عبيد، قال: رأيته يحك نعله، أو خفه على باب المسجد. قال: يذكر أنه طهور.

والخامس أنه حينما بدأ الناس يتجنبون الصلاة في النعال والخفاف في المساجد خلعوها على باب المسجد ثم وضعوها في المساجد مقلوبة حتى لا تمسها الأقذار، في المصنف لابن أبي شيبة: حدثنا أبو أسامة، عن مسعر، عن عبد الكريم قال:: كان عزيزا على طاوس، إذا دخل المسجد أن لا يقلب خفه، أو نعله، ولو كان الخفان بمثابة الجوربين لما خلعوهما.

وأرجو أن هذا القدر يكفي لبيان أن الخفين من جنس الحذاء (بالأردية: جوته)، لا من جنس الجورب (بالأردية: موزه)،

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبيه الكريم.

ALAWRAAQ Publications
www.alawraaq.com